إذا كانت البشرية -قديمًا وحديثًا- أذاقت وما تزال تذيق الناس ألوان التعذيب والتقتيل والمهانة، فإن الإسلام قد كرم هذا الإنسان أحسن تكريم.. إنه لم يقف عند هذا، بل نجده قد حرم تعذيب الحيوان وجعل ذلك موجبًا من موجبات عذاب الله تعالى له.

د. مصطفى فايز
كلية الطب البيطرى
جامعة قناة السويس

الرفق بالحيوان.. عنوان حضارة الإسلام

هناك أكثر من سورة حملت اسمًا من أسماء الحيوان.. توكيداً لاهتمام القرآن بالحيوان لكونه خلقًا من مخلوقات الله؛ ولأنه مصدر من مصادر رزق الله لنا

هل يا ترى كان للحيوان موقع فى منظومة الأخلاق الإسلامية يومًا؟ وهل نال من الحقوق والرحمة به نصيبًا يليق به باعتباره مخلوقًا من مخلوقات الله فى الأرض؟

جوابًا عن هذه الأسئلة، تتقدم آية عجيبة من كتاب الله عز وجل لتخبرنا أولا أن عالم الحيوان كعالم الإنسان تمامًا بتمام، يقول عز من قائل: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨].

إنه ما من دابة تدب على الأرض -وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقريات- وما من طائر يطير بجناحيه فى الهواء -وهذا يشمل كل طائر من طير وحشرة أو غير ذلك من الكائنات الطائرة- ما من خلق حى فى هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم فى أمة، ذات خصائص واحدة وذات طريقة فى الحياة واحدة كذلك.. شأنها فى هذا شأن أمة الناس... من هنا نعلم أن للحيوان حق الرحمة كحق الإنسان.

وذلك لما له من خصائص وطبائع وشعور لا تقل عما لدى الإنسان، وإلا فلا معنى لكلام رسول الله ﷺ -وحاشاه- وهو يتوصى بالحيوان

خيرًا حتى ولو كنت قائده للموت حين قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» (رواه مسلم).

تسمية سور القرآن بأسماء الحيوان

وفى إشارة لطيفة بموضوعنا هذا، نجد القرآن الكريم يحمل فيما يحمل سورًا بأسماء الحيوان؛ وذلك كالبقرة والأنعام والنمل، ولم تكن هذه التسميات عبثًا، وإنما سميت بها ليلفت سبحانه انتباهنا إلى الاهتمام بالحيوان، لكونه أولا خلقًا من مخلوقات الله، وثانيًا لأنه مصدر من مصادر رزق الله لنا.

الطريق السوى حق من حقوق الحيوان

ومن منا لم يسمع بقولة الفاروق عمر رضى الله عنه وهو يشرع فيها لحقوق الحيوان حتى جعل الطريق المعبد السوى حقًا واجبًا من حقوقه حين قال: «لو أن بغلة عثرت بشط العراق لخشيت أن يسألنى الله عنها لِمَ لَمْ تصلح لها الطريق يا عمر».

إنه لسبق حضارى رفيع أن نجد من ينادى بهذا الحق للحيوان فى هذه الأمة منذ خمسة عشر قرنًا، أما حق الأكل والشراب والرعاية فمكفول بكل تأكيد.

وإن تعجب، فعجب كله أن هذا النداء من الفاروق رضى الله عنه، صدح به عاليًا فى وقت كان الإنسان يُستعبد وتداس كرامته عند الأمم الأخرى كالفرس والروم وغيرهم... ولا يتمتع بأدنى حقوقه التى تليق بكرامته كمخلوق كرّمه الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بل إن رسول الله ﷺ ساعة القتال كان يوصى أصحابه بالناس والحيوان والنبات خيرًا، يقول ﷺ: «اغزوا باسم الله ولا تقتلوا شيخًا هرمًا، ولا عابدًا فى صومعته، ولا صبيًا ولا امرأة، ولا تهدموا جدارًا، ولا تغوروا بئرًا، ولا تخربوا عامرًا، ولا تقطعوا شجرة يستظل بها ابن السبيل، ولا تذبحوا بهيمة لغير

مأكلة».

بهذه القيم والأخلاق الرحيمة التى سادت عالم الإنسان والحيوان على حد سواء، فتح المسلمون قلوب العباد قبل حدودهم، فدانت لهم الدنيا طواعية، حتى قال المفكر الفرنسى «جوستاف لوبون» فى «حضارة العرب» بعد قراءة متأنية دقيقة لتاريخ الإسلام: «ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل من العرب المسلمين». ولندع -اللحظة- شواهد من هذا التاريخ الإسلامى تنطق بنفسها وتشهد على سمو أخلاقنا مع الحيوان.

رحمة النبى ﷺ بالحيوان

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فرأينا حمرة (طير يشبه العصفور) معها فرخان لها، فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف بجناحيها)، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها».

لقد أحس رسول الله ﷺ بما أحست به تلك الحمرة من حرقة ولوعة، فدعا إلى الرفق بها بإرجاع فرخيها إليها حتى تسكن ويهدأ روعها، إنها من أمة الطيور لها حقها من الرفق والرحمة كحق الإنسان. وإن الرحمة لخلق عظيم يدخل صاحبه الجنة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ حين قال لصحابته رضى الله عنهم يومًا وهو يحثهم على الرحمة بالحيوان: «بينما رجل يمشى بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل، لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى، فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له.. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا فى البهائم لأجرًا؟ فقال ﷺ: فى كل ذات كبد رطبة أجر».

القسوة على الحيوان موجبة لعذاب الله فى شريعة الإسلام.. فقد دخلت امرأة النار فى قطعة حبستها حتى ماتت.. ودخل رجل الجنة لسقيه كلبًا بخفه كاد يموت من العطش

قد يحتقر الواحد منا هذا الصنيع ولا يوليه كبير اهتمام فى زحام الحياة، لكن الله سبحانه قدره وخلد ذكر ذلك الرجل فرحًا بما صنع. وكيف لا يلتفت سبحانه لهذه الرحمة من بشر وهو سبحانه الرحيم الرحمن القائل: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾، بل إنه وصف نبيه المصطفى الكريم بكونه رحمة

للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. لذا وجدناه ﷺ فى كل مرة يذكّر أصحابه بخلق الرحمة: «الراحمون يرحمهم الرحمن».

وفى حديث آخر شديد الصلة بالرحمة والرأفة يقول النبى ﷺ: «من أُعطى الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة».

هكذا نجد خلق الرحمة بالحيوان عنوان حضارتنا الإسلامية التى كان لها قدم السبق فى ذلك، بل إنك لو اتبعت تشريعنا فى هذا المجال لوقفت على تراث زاخر عظيم ينطق رفقًا ورحمة، فها هو ذا نبى الله سليمان عليه السلام تستوقفه نملة بواد فيتبسم إليها ضاحكًا، ويجلس إليها تحاوره ويحاورها بوحى من الله سبحانه وتعالى، لأنها -وأمتها- خلق من خلق الله، بل إنه سبحانه سمى -

اتفق الفقهاء على وجوب الإنفاق على الحيوان من جانب صاحبه.. وألا يحمله فوق طاقته.. فإن لم يفعل وجب على الحاكم المسلم مصادرة هذا الحيوان والإنفاق عليه أو بيعه أو ذبحه

كما سبقت الإشارة- سورة باسمها ليخلد ذكرى هذه النملة وأمتها، ويجعل كلامها متعبدًا به إلى يوم القيامة.

القسوة على الحيوان موجبة لعذاب الله

وإذا كانت الرحمة بالحيوان خلقًا يوجب المغفرة -كما سبق- فإن القسوة عليه فى المقابل تدخل النار. فقد أخبر رسول الله ﷺ قائلاً: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

فإذا كانت البشرية -قديمًا وحديثًا- أذاقت وما تزال تذيق الناس ألوان التعذيب والتقتيل والمهانة، فإن الإسلام قد كرم هذا الإنسان أحسن تكريم، بل إنه لم يقف عند هذا، بل نجده قد حرم تعذيب الحيوان وجعل ذلك موجبًا من موجبات عذاب الله تعالى له. فهذا رسول الله ﷺ حين رأى قرية نمل قد أحرقها بعض الصحابة قال مستنكرًا: «من أحرق هذه؟ قلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار».

بل إنك لتعجب حين تعلم أن إضجاع الحيوان للذبح قبل أن يعد المرء شفرته، قسوة فى دين الله لا تجوز. فقد قام رجل بين يدى رسول الله ﷺ وأضجع شاته للذبح وشرع يحد شفرته، فقال له النبى ﷺ: «أتريد أن تميتها موتات؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟».

إنها لمشاعر إنسانية تفيض نبلا ورحمة، ما عرف التاريخ مثيلا لها إلا فى ظل شريعتنا الغراء التى تحس بكل ما يحس به أى مخلوق. ولكى تزداد يقينًا، أدعوك لنصغى جميعًا لرسول الله ﷺ وهو يقوم سلوكًا منحرفًا أساء إلى حيوان أبكم أرهقه صاحبه فوق ما يطيق؛ فقد دخل رسول الله ﷺ بستانًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبىَّ حن وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح دموعه

خصصت الممالك الإسلامية المتعاقبة أوقافًا تخص الحيوان وتهتم برعايته وتطبيبه.. وخدمة من عجز وكبرت سنه منها

ثم قال: من صاحب هذا الجمل؟ فقال صاحبه: أنا يا رسول الله، فقال له النبى ﷺ: أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملّكك الله إياها، فإنه شكا إلىّ أنك تجيعه وتدئبه».

فكما أن تحميل الحيوان فوق طاقته منكر قد حاربه الإسلام واستنكره، نجده كذلك قد حرم – فى إطار حقوق الحيوان– إجاعته وتعريضه للهزال والضعف والتلف. فقد مر رسول الله ﷺ ببهيمة قد لصق ظهرها ببطنها، فهاله ما رأى من خرق لحقوق هذا الحيوان، فانتفض غاضبًا وقال: «اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة».

ومما يستفاد من هذا الحديث أن النفقة على الحيوان واجبة على صاحبه، ومما استخلصه الفقهاء كذلك بدورهم أنه يجبر كل من امتنع عن إطعام الحيوان على بيعه أو الإنفاق عليه أو ذبحه.

ويذكر التاريخ كذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يسير يومًا وهو يتفقد أحوال الرعية، فرأى رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها، فهاله ما رأى من إساءة بالغة فى حق شاة بكماء فقال له: ويلك، قدها إلى الموت قودًا جميلا.

ومما قرره فقهاؤنا من حقوق للحيوان، أنه إذا لجأت هرة عمياء إلى بيت شخص، وجبت نفقتها

عليه إذ لم تقدر على الانصراف.

هذا غيض من فيض مبادئ الرفق بالحيوان فى تاريخنا، وتلك أمثلة على ذلك كواقع تطبيقى لرعايته وعدم الإضرار به ومنع الأذى عنه، حتى صار قانونًا بين الناس عدم تحميل الدواب فوق ما تطيق، أو تعذيبها وضربها أثناء السير، أو إيقافها فى العراص وعلى ظهورها أحمالها، كما منع السماح لأصحاب الدواب بإلجامها بلجام ثقيل أو نخسها بمقرعة من حديد فى أسفلها.

الرفق بالحيوان عنوان حضارتنا

فهل تجد أمة من الأمم بلغت هذا المستوى من الرفق والرحمة بالحيوان فى غابر الأزمان غير أمة الإسلام؟ ولعل أرق وأصدق مثال يدلك على سمو تلك الروح لدى حضارتنا أن نجد صحابيًا جليل القدر كأبى الدرداء الذى كان له بعير فيقول له عند موته: «يا أيها البعير لا تخاصمنى إلى ربك، فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك». وأن نجد كذلك فى منظومة القتال والحرب فى الإسلام، أنه يحرم حرق الزرع وقلع الشجر وعقر الدواب إلا ما كان لحاجة.

بل إن المرء ليحار وهو يسمع للإمام أبى إسحاق الشيرازى الذى كان يمشى فى طريقه ومعه بعض أصحابه، فعرض له كلب فزجره صاحبه فنهاه الشيخ قائلا له: أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه؟

وإن تستغرب، فالغرابة كلها فى أن تجد صحابيًا جليلا وهو عدى بن حاتم الذى تعود أن يفت الخبز للنمل ويقول: إنهن جارات لنا ولهن علينا حق.

وتتويجًا لأخلاق الرحمة والرفق بالحيوان، انتشرت فى بقاع العالم الإسلامى أوقاف تخص الحيوان وتهتم برعايته وتطبيبه، كما وجدت أوقاف لرعى من عجز منها وكبرت سنة فسميت «مروجًا خضراء». وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على سبق هذه الأمة إلى الرفق بالحيوان قبل أن تدعو أى أمة لذلك.

ولمن أراد أن يزداد يقينًا، فليصغ إلى رسول الله ﷺ وهو يعلن جهارًا نهارًا إلى الإنسانية جمعاء، عن حق من حقوق الحيوان حين قال: «لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى». فالجلوس طويلا على ظهر البعير وهو واقف، حرام فى دين الله تعالى، لأنه اعتداء على بهيمة تحس لكنها لا تنطق.

كذلك يحرم التلهى بالبهيمة والطير فى الصيد عبثًا، مصداقًا لقول النبى ﷺ: «من قتل عصفورًا عبثًا عج إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلانًا قتلنى عبثًا ولم يقتلنى منفعة».

إنه دين كله رحمة ورأفة شملت الإنسان والحيوان والجماد وكل شىء. بل إننا نجد مصطلح الرحمة يغطى القرآن الكريم كله باشتقاقاته المتنوعة، إذ لا تكاد صفحة من القرآن الكريم تخلو منه، إن لم يكن لفظًا فدلالة. ونحن لا نبدأ أى عمل إلا باسم الرحمن حتى يمتلأ عملنا بالرحمة وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن المنظومة الأخلاقية لهذا الدين تقوم على مبدإ الرحمة. يقول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾. ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، وغيرها من الآيات كثير.

ولذلك فإن رعايتنا للحيوان وتربيتنا له يجب أن تكون مليئة بالرحمة وكذلك علاجنا وتمريضنا له وقيامنا بالجراحات اللازمة وكذلك كل ما هو لازم لإصلاح شأنه.

فبذلك نكون أطباء رحماء، وساعتها نستطيع أن نقول إننا مسلمون نفهم تعاليم ديننا وإشارات قرآننا وإذا تقدمنا أكثر نستطيع أن نقول إننا أصبحنا فقهاء نفقه ديننا ونستحق أن نمتهن مهنة رعاية الحيوان، مهنة جميع الأنبياء، فما من نبى إلا وقد رعى الغنم، فمن يرع الغنم وحافظ عليها ويكرمها، يستطع بعدها أن يرعى الأمم.